وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهى الشيء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ السَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

فى الأولى قال : - سبحانه -(وكذلك نجزى المجرمين) .

وفى الثانية قال : (وكذلك نجزى الظالمين) .

فكأن الإجرام كان سبباً فى ألا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكرهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وسبب بشاعة جزائهم ثانياً ؛ أن نتلهف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقول الحق سبحانه وتعالى : «لانكلف نفساً إلاوسعها»جء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن أسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت«لانكلف نفساً إلا وسعها»بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع«والذين آمنوا»فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده«وعملوا الصالحات»وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مععمل الجوارح يتحقق من السلوك مايتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو يسهل دائما السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا مافى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات»هو رغبة فى إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلَّف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ماتطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق مايطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم بأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل مالا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لايشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لايمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لالصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«فعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدى مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك ممايحتاج إليه الحياة ، لذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع في موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. ⑦ ﴾ [سورة الطلاق]

«قدر على رزقه» أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَـٰهَا .. ⑦ ﴾ [سورة الطلاق]

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش في حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لايكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ماآتانا الله ؛ لذلك لاتدخل في حساب الرزق إلا ماشرع الله ، فلا تسرق .

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتانى الله ، لا ، لا ، عليك ألاّ تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت فى نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التى تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما فى طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت فى الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفى ذلك لفت لقضايا الله فى كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شىء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتى إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذى لا يتأبى على قدر الله فى رزقه وفى عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفى الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣ ﴾

وقوله الحق: « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » ينطبق - أيضا - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم فى الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس فى صدر أحدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول : « اللهم اجعلنى أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء » . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف فى مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابى ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم فى دار الجزاء فى الآخرة ؛ لأن الله يقول : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك فى أغيار الدنيا شىء من عمل القلب ، فأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم فى الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفى الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله فى الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول : غشنى وزوجنى ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقى فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح فى الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها فى الأبناء أو فى البنات ، بل فى الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبيّن للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التى غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها فى الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التى كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجرى تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « من » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر فى قصر ونجد الماء منساباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء فى الدنيا سنسر به أضعاف ذلك فى الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجرى من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شىء ممسوك لا بالأسباب كما فى الدنيا ، ولكن بـ« كن » التى هى لله . ولذلك يقول العباد فى جنة الآخرة :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هى عبادة يقولها المؤمنون فى الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله فى تكاليفه فى الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون فى الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما فى الجنة ؛ لأن الشىء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان فى الدنيا عبادة تكليف ، أمّا فى الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصى لما وصل إلى الجنة . والهداية ـ كما قلنا ـ هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتى الحق فى الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت فى الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشى إلى المكان الفلانى واذهب إليه عن الطريق الفلانى ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم .(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن فى دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا ـ جزاهم الله خيراً ـ وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة

قالوا: ولا أنت يارسول الله ؟

قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[1] .

وأقول: ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق ﷺ الذى بلغ عن الله سبحانه، بل بينهما تأييد؛ فالحق ساعة ماشرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه، بل هو الذى يعطيه لنا فضلا منه؛ فليس لأحد حق على الله ؛ لأنه لايوجد عمل يعود بفائدة على الله ، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله. وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لاتعارض بين نص حديثى ونص قرآنى . يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

[سورة يونس]

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنه يأخذ مكافأته على فعله، فإن كانت المكأفاة أكبر من جزاء الفعل فهى من الفضل؛ لأن الحق هو القائل:

﴿ .. كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾ [سورة الطور]

وسبحانه أيضاً هو القائل:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [سورة النجم]

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضحة تقول: هذه «اللام» للملك. وتفيد أنه لاحق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله ، وأن هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل .

(١) رواه البخارى فى الرقاق والمرضى ومسلم فى صفات المنافقين والترمذى فى الجنائز وأبو داود فى الجنائز ، والنسائى فى الجنائز ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى مسنده ٦/ ١٢٥ .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [سورة يونس]

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئا زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن صلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهى صلاة على ميت مسلم ، وأسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ .. (٢١) ﴾ [سورة الطور]

أى أن الأباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، قوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [سورة الطور]

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الاباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعشيون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ .. وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [سورة الأعراف]

و«أرثتموها»من«الإرث»وتدل على أن هناك شيئاً آل إلى الغير . ونعلم أن الله، علم أزلا كيف سيسلك كل مخلوق وماسيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً فى النار على أساس أنه سيكفر .

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن فى الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و ـ والعياذ بالله ـ إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام فى الجنة والجزاء وفى حمد التلذذ والسرور والغبطة وفى عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا التراثى من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو فى النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه فى الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل ـ يا أهل النار ـ وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقى واحد ؛ فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف فى كلمة ماوعد (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم فى الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار فى النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله .

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدى الذى عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين فى غير مشهد ، وهم فى الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم فى النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أى فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والذى يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أى ضلّ فى ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النارفيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم فى أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى فى غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب فى نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله فى الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس فى مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و « كُلًّا » المعنىّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و«الأعراف» جمع «عُرف» مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلا لاستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل فى منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولاتفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة - أصحاب الأعراف - يقول للأعلى - أصحاب الجنة - سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فى ميزان العدل الإلهى الذى لايظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة القارعة]

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريق ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومنتهى المنطق فى القياس الموازينى أن يوجد فريق ثالث هم الذين الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة »فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوا ، لكنهم يطمعون فى أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ .. وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾

[سورة الأعراف]

وبطبيعة الحال ليس فى هذا المكان غش ولا خداع .

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

انظر إلى التعبير القرآنى « صرفت أبصارهم » أى لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن فى «صرفت أبصارهم»لونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : «وإذا صرفت أبصارهم تلقاء»أى جهة أصحاب النار يقولون : (ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يارب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألا يدخلهم معهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾